مذكرات رشدي العامل:

حكايات طائر الفرات

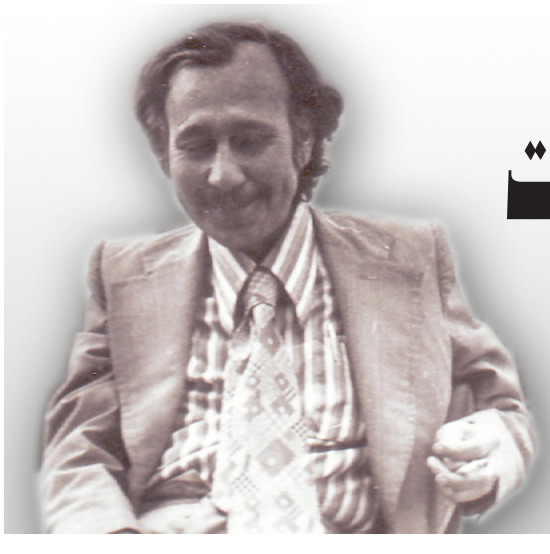

يسرد الشاعر الراحل رشدي العامل ومضات سيرته الذاتية متأملا مساراته الانسانية والسياسية والشعرية ومحققا في انثيالات عالمه الخاص، و(المدى) إذ تنفرد بنشر اوراق الشاعر على حلقات اسبوعية فانها تنوه باهمية (اعترافات) العامل كونها وثيقة تاريخية وابداعية لشاعر كبير.

المدى الثقافي

-الحلقة الثالثة-

كتب غامضة في ديوان قديم

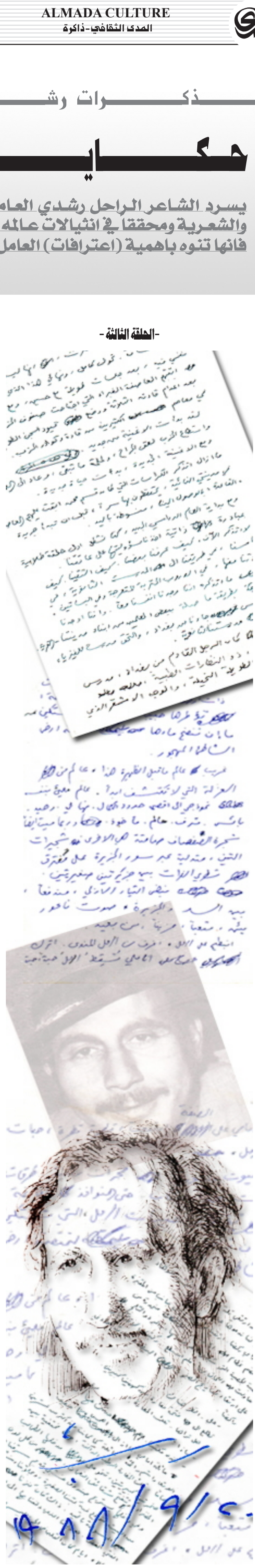

على سفح واد ابيض الصخور، تنبت فيه الزهور والاعشاب، بعد امطار الشتاء، في كل ربيع، ذكرى الديوان القديم تلح علي، كلما فتحت نوافذ الماضي البعيد، ففي ذلك البناء العتيق كانت ثمة اشياء كثيرة متناثرة، او مركونة في الزوايا، موقد النار "الوجاق" المستطيل في الوسط، حيث كانت تتكدس جذوع الاخشاب المقطوعة، دلال القهوة، بلونها النحاسي الأصفر الملتمع باحجام واشكال مختلفة، الصواني القديمة، والفناجين. صندوق حديدي اسود، فيه امواس حلاقة جدي التي كان يجلبها من دمشق، محبرة قديمة ذات خزانين، عصا ابنوسية طويلة ذات غمد يخفي حربة صغيرة تنتهي بمقبض من الفضة، واهم من هذا كله صندوق آخر يضم بعض الكتب المخطوطة.

ان تلك الكتب الغامضة، ذات الورق السميك والخط القديم، وبعدة الوان من الحبر، الكتب برائحتها المتميزة، كانت تبعث في شعوراً بالغبطة والراحة اشبه بما يبعثه البخور في معبد شرقي قديم.

وحيداً كنت التجئ اليها.. اقول التجئ اليها بكل ما في الكلمة من معنى، في شحوب الضوء الذي يدلف واهناً على جدران الديوان المتآكلة اجلس على الارض، وابدا برحلة مع المخطوطات ذات الرائحة القديمة الآسرة.

كانت تلك الاوراق المدونة الملظومة بعناية، والمجلدة بحرص ودقة، تضم ضربين من المعرفة: الفلسفة، واللاهوت اولاً، والشعر ثانياً واخيراً وكنت موزعاً بينهما، لقد اسرني ذلك العالم الغريب، حيث تختلط الافكار المطلقة والمجردة عن الله وما وراء الطبيعة، الخير والشر، والثواب والعقاب، في ميثولوجيا دينية، حسية حيناً وصوفية حيناً آخر. كانت العذوبة والصفاء والسكينة تفعم مشاعري بعبير ذي الوان لا حصر لها، غير انها - تلك الميثولوجيا -كانت تشيع، احياناً اخرى، البرودة والقشعريرة في ذهني وجسدي، لما تنطوي عليه من نبوءات ونذر صارمة، كانت عدوانيتها وشراستها تجرح ورقة احلامي الصبية، وتبعدني عن امكانية قبولها وتصديقها.

صورة الجحيم!

فالجحيم، كما تصوره مختلف الديانات، كان في نظري مكاناً شريراً، لايقل عن الخطايا التي اوجد من اجل مقاضاتها، ثم انه- وفق ما يصوره مفسرو مختلف النصوص الدينية المقدسة- كهف بغيض، غير قابل للتصديق، تمارس فيه اقسى واشنع صنوف التعذيب.

املك عمراً واحداً

لقد استغرقتني هموم الحياة البشرية التي اواجهها مع مئات الملايين من الناس في كل انحاء الارض، عن التطلع الى ما وراء النجوم، فالتفكير في البؤس المنتشر على كوكبنا الارضي المسكين يكفي لملء عشرات الاعمار، وليس عمراً واحداً، لا املك سواه، ولا اعرف متى يتسرب مني !

ان المظالم والاستلاب والقهر، الفقر والبؤس والاستغلال والزيف والكذب والبغاء والجريمة، الاستعمار الذي يجثم على بقاع متعددة من الكرة الارضية والديكتاتوريات المكشوفة والمقنعة، كل هذه الظواهر التي رافقت مسيرة البشرية، وكبلتها بمختلف اشكال القسر والعبودية لاتزال تغل أيدي، وتكمم افواه مئات الملايين من البشر المسحوقين في كل انحاء الكوكب الأرضي.

إرهاصات أولى بالطريق

كانت تلك، فترة الارهاصات الاولى لولادة الفكر الثوري، في ذهني الفتي، واستطيع ان اسجل بكل ثقة ان اختياراتي الاولى، وما تلاها، وبكل ما حفلت به من عناء وعنت، ظلت، دائماً تتميز بنوع من الوضوح والقناعة والوعي، ان النار البطيئة، النار الهادئة، تنضج الطعام بشكل افضل.

ولقد حرصت فيما بعد وانا اقوم بدوري داعية من دعاة الفكر التقدمي، على مساعدة الناس الذين التقيهم، بحكم عملي السياسي، او المهني، في صياغة افكارهم، بهدوء ووعي ووضوح، وان اساعدهم، جهد ما استطيع في الوصول الى القناعة التامة والتثبت في الاحكام والمواقف بمختلف سبل الجدل والحوار والمطالعة والملاحظة الدقيقة.

اما المخطوطات التي يحتل الشعر صفحاتها، فهي اثيرتي التي لا يعدلها شيء. انها كنزي الذي يمنحني البهجة ويهبني الاحزان السعيدة الغامرة، فايقاع الجرس الشعري ورنينه وتساوق الكلمات ونبضها، ودفق القوافي والاوزان، هو الغذاء الذي ملأ عروقي بعبير لم ينفد ابداً.

وعندما بدأت الماركسية تغزو ذهني الفتي، لم اجد ثمة حاجزاً بينها وبين مواصلة الاستزادة من الاغتراف من منابعي الاولى.

لقد صنعت مخيلتي، التي ظلت هائلة الاتساع، جسراً بين مخطوطات الديوان القديم، وبين كراسات الحزب وادبياته، في "المغارة" التي اودعنا فيها مكتبتنا الصغيرة العزيزة الاولى، في احد جبال قريتنا- العاصمة. ولقد كان الطريق من الديوان القديم الى المغارة في كنف الجبل الرابض على تخوم بيوتنا البسيطة وزروعنا ونخيلنا، متعرجاً قاسياً في بعضه، كان طريقاً حجرياً.

وحتى اللحظة، فان اية رواية تجري احداثها في اية منطقة جبلية من العالم لاتزال تستأثر باهتمامي وتثير في ذاكرتي انبعاثاً تلقائياً لتلك الفترة من الحياة. وليس عبثاً، ما تركته قراءاتي لكازانتزاكي من أثر عميق في ذهني. فباسترجاع بسيط، تلوح أمامي جبال قريتي ووديانها وسفوحها ومزارعها وبيوتها القديمة، وحياة سكانها اليومية وهمومهم وتطلعاتهم وافراحهم البسيطة العذراء.

في الغرفة الجانبية، المفصولة عن بقية غرف البيت الكبير، جلس المعزون الذين قدموا من مختلف محلات البلدة الافعوانية الطويلة للمشاركة في مجلس الفاتحة، على روح احد افراد عائلتنا.

كنا، نحن شبية الاسرة، نتوزع في الطارمة الامامية لتقديم القهوة المرة والسجاير واقداح الماء، بينما يجلس كبار العائلة مع المعزين الذين لا تنقطع خطاهم، عن المجيء والرواح، فاحدى سمات المدن الريفية، ان الناس فيها يجتمعون دائماً في مناسبات الافراح والاحزان. انه واجب، يمارسه الجميع بشكل تلقائي لا تردد فيه.

في ذلك الصباح، كان والد حسين، قد عاد بعد رحلة قصيرة الى بغداد، وبالطبع فقد اتخذ مكانه الى جانب بقية رجال العائلة .

حكاية مختار المحلة

ان من المشوق ان اتحدث قليلاً عن ذلك الرجل الطيب الذكي، الذي كان مختار محلتنا، في تلك الفترة.

لا أزال اتذكره، بوجهه الهادئ الصبوح، وقامته الطويلة بشكل غير اعتيادي، وهو يتخطى بين داره التي بناها من طابقين، والتي كانت غرفها جزءاً غالياً من مرابع طفولتنا وبين مقهاه الصغير داخل كراج السيارات الذي يشغله سواق السيارات الغرباء العاملون على سياراتهم بين عنة والرمادي وبغداد، كفندق ومطعم.

ان ذلك الرجل القروي الذكي كان يستطيع ببساطة مدهشة ان يغدو أليفاً لكل قادم الى المدينة، -القرية كان موضع ثقة الجميع ، سكنة محلته، والمحلات الاخرى، كما كان موضع ثقة وحب الغرباء القادمين الى الغربة. كان ودوداً، بشوشاً، رغم غضون التعب في وجهه الناعم. لست ادري كيف اكتشف سرنا، غير انه بدا لنا بعد حين، انه يهجس شيئاً ما في لقاءاتنا التي لم تستطع عفويتها، ان تضلله.

ولما كان "حسين" هو الاثير لديه، بين اربعة اخوة فقد كان ينتظر زياراته، في الاجازات الدراسية، بصبر وشوق غامر، ولا ريب ان الرجل، قد اصغى الى ما يتردد على لسان القادمين من بغداد، من اقربائه ومعارفه الكثر وما يلاحظه ويصغي اليه، عندما يزوره، في القسم الداخلي لدار المعلمين الابتدائية في الاعظمية ببغداد، حيث كانت الدار احدى اهم مراكز القوى التقدمية، في الوسط الطلابي يومذاك. لقد عرف الرجل، ان ابنه قد سار شوطاً ما، في الحركة الشيوعية، اما كيف؟ والى اين؟ وما هو المصير الذي ينتظره ولده الفتي الاعز لديه؟ فقد فضل أن لا ينبس بشيء.

كل ما يفعله، عندما يأتي الفتى، لتمضية العطلة في عنة، هو الاحتفال به، بشكل هادئ وقور، لكنه مفعم بالزهو والحب والترقب.

وكان حسين يحرص بمثابرة رائعة، ان لا يستسلم لترف الكسل في عطلته الطويلة، فما ان يمر يومان او اكثر، وبعد ان يرضي حنين امه واخوته واخواته اليه. ويستمتع بدلال الغائب العائد، وامتيازاته، امداً قصيراً، حتى يسارع الى الوقوف مع أبيه في المقهى، او خدمة المسافرين في الكراج، وكان هذا السلوك مبعث رضى عميق من والده الكهل، ومثار اعجاب واحترام، من الاقارب والمعارف.

وقد اثمر هذا السلوك النموذجي، رصيداً طيباً للفتى، ساعده، وساعدنا جميعاً بالتالي، على ما اخذنا نبشر به.

كانت قريتنا تنتظر موعد العطلة الصيفية للطلبة والمدرسين بصبر وترقب بانتظار عودة الغائبين اليها.

موسم النهر العظيم

وهكذا فان العطلة الصيفية للطلبة كانت مهرجاناً حقيقياً لقريتنا عنة وشقيقتها راوة، انني لن انسى ابداً، وجوه الامهات المترقبة، المتشوقة الى الابناء القادمين من العاصمة، بعد ان امضوا عاماً دراسياً آخر، ولا عيون الآباء والاخوة والاقارب، العيون المتطلعة بفرح بعد جهد تسعة شهور في المزارع والبساتين، بين سواقي النواعير، في ليالي الشتاء المقرورة تحت المطر، والظلام واضواء الفوانيس الزيتية الواهنة، والايدي المعروقة، تنبش الارض الصغيرة، التي جاد بها النهر العظيم بين ضفته اليمنى وسلسلة الوهاد الصخرية الممتدة الى جانبه، تلك الارض المحدودة، التي استثمرها الناس احسن استثمار، فلم يتركوا شبراً منها يواجه لون السماء بلا ثياب خضراء. لقد تجاوزوا، وهم يقدحون افكارهم، على حرمة النهر نفسه، فاستخلصوا منه ألسنة من الارض الرملية الخصبة تمتد امتاراً داخل مياهه من ضفته المباركة، زرعوها فاكهة طيبة بل انهم اهتبلوا. نعومة صدر الفرات، وهدوء مياهه وصفاءها، وانحسارها في مواسم الصيف، وبنوا سدوداً من الصخر الابيض الاصم يترسب خلفها طمي النهر عندما يمارس طغيانه المروع في مواسم الفيضان. هذا النشاط البشري الصابر المترقب، الذي لا يعرف احد، متى بدأه سكنة هذا الوادي العجيب الغامض، هذا النشاط افرز جزراً تمتد امتداد النهر من اقصى قرية راوة الشمالي، الى ابعد ما تصل اليه القرية المدينة، عنة، انه جزء من تراث موغل في القدم، يبدو انه يمتد الى الفترة التي وجد فيها سكنة ذلك الوادي، الذي كان غابة لحمر الوحش، فيما يذكر المؤرخون، وجدوا ان فسحة الارض بين النهر والجبال تضيق بهم فاضافوا اليها أراضي اخرى، انتزعوها من النهر، معتمدين على كرمه الذي لا حدود له !

لقد ظلت تلك الجزر الخضر، ملعب صبانا في شهور الصيف، نعبر اليها سباحة، او على زوارق من صفيح علب البنزين الفارغة نسطحها ونلحمها ببعضها ونملأ الفجوات بالقير المغلي، ونمضي بها عبر النهر، جذلين نحن احفاد بدائيي سكنة هذا الوادي، الذين عرفوا، بلا ريب رفقة الوحوش التي كانت تحتل غاباتهم القديمة، مثلما أنسوا فيض النهر وطيبة الارض وعطاء المطر.

وأذن فبالاضافة الى انتظار الآباء والامهات والاقارب والاصدقاء لاولئك القادمين من بعيد، حيث يدرسون في المدينة النائية، بغداد، كان كل شيء بانتظارهم.. المزارع وبساتين النخيل والكروم، واشجار المشمش والخوخ والتفاح وثمار التين المتدلية على ضاف الفرات، والجزر الخضر والنواعير الخشبية الساحرة والسواقي، والزوارق الصغيرة، البسيطة، الخشنة، وآلاف الحكايا المعادة، المكررة عن الزروع والافرح والمآتم، والخلافات العابرة، والمصالحات التي تتلوها، وقل وبعد كل شيء، الرضى الهانئ القرير، والنقود القليلة المنتزعة بالجهد والعرق والضنى، لرفد احتياجات عام قادم جديد للابناء الدارسين في العاصمة الاسطورية، التي لم يشاهدها الكثيرون من سكنة ذلك الوادي.

أسرار جديدة لقرية قديمة

في غمرة ذلك المهرجان السنوي الهادئ، الذي غدا عادة مألوفة، عند بدء كل عطلة صيفية، كانت المقاهي الصغيرة وهي محلات اللقاءات اليومية للجميع، بعد اختفاء الدواوين تكتظ بطلبة المعاهد العالية والمدرسين والمعلمين الذين يقضون عطلتهم في قريتهم الشهيرة.

كانت آخر الاخبار الطازجة ، تنتقل بسرعة.. اخبار العاصمة البعيدة الغامضة، اسرارها وملابساتها وتعقيدات حياتها. وكانت التساؤلات كثيرة، والهمسات تغدو احاديث طليقة بشكل ما، وهي تتسرب من شفاه القادمين، حركات طلبة العاصمة، وعمالها، وناسها الآخرين، احزابها السرية والعلنية، صحفها، اشاعاتها، رجال الحكم الذين يديرون ماكنة الدولة، والايدي الخفية التي "تزيت" نوابض تلك الماكنة. في تلك العطلة، ربما للمرة الاولى، في التاريخ غير المكتوب لمدينتنا .. - لقريتنا الحلوة الساكنة، يتلقى ابناؤها القادمون لتمضية الصيف فيها، اخباراً جديدة، ان قريتنا، لم تكتف هذه المرة بمجرد الاصغاء، بالتقاط الاخبار فقط. انها هي الاخرى، تضم سراً .. سراً جديداً، مدهشاً، تقايض به الاسرار الاخرى الوافدة من هناك، من العاصمة البعيدة..

"آه.. ان لدينا اسراراً نحن ايضاً.. سكنة الوادي الاخضر العتيق"..

ولقد بدأ الخبر ينتشر في اليوم التالي، لمجلس الفاتحة في بيتنا ، عندما سأل العم احمد عن اخبار المحلة، وهو يرتشف فنجان القهوة من يد ابنه حسين نظر الجالسون الى بعضهم، وبدأ الجميع يتنافسون بصمت على من يخبره اولاً، غير ان أبي بادر بالاجابة:

"آخر الاخبار، مختارنا ، ان منشورات توزعت" نظر اليهم الرجل بهدوء، وكأنه لم يفهم، هنا ، اختلطت الاصوات: "منشورات" .. "منشورات شيوعية".

وبدأ سيل لانهاية له من التفصيلات "من محلة الشريعة الى رأس الغربي".

ويضيف آخر "..لا .. لا .. والله، من الجميلة الى آخر راوة" قالوا وهم يعددون اسماء الاحياء السكنية من اقصى الشرق الى اقصى الغرب، ثم يعبرون الفرات الى اخبار قرية راوة.

قال احدهم، وهو يثبت نظراته على المختار.. على أبي حسين: " تصور مختار حتى على قطعة القائممقامية".

ويدهش المختار متسائلاً "قطعة القائممقامية؟".

ويجيب ابي وهو يلف سيجارته "نعم والله ... شياطين حتى قطعة القائممقامية لصقوا عليها منشوراً!"

"شياطين".. "شياطين" همس الجالسون باصوات ذاهلة. في تلك اللحظة التقت عيوننا حسين وانا. كنا نوزع القهوة المرة والماء البارد. اوشكت الضحكة تخنق حسين، وهرعنا معاً الى الخارج يخفق صدرنا بالضحك.

القائممقام ومنشور الحزب

أرأيت ؟!

همس حسين بفرح .

كنا قد تلقينا عدداً كبيراً من الملصقات الصغيرة، التي وزعها الحزب الشيوعي في جميع انحاء الوطن، لادانة الانتخابات النيابية والدعوة الى مقاطعتها، وقمنا بتوزيعها على تشكيلاتنا الطلابية الصغيرة ومن ثم الصاقها في الاماكن الظاهرة للعيان بمدينتنا المختفية بين اشجار النخيل الكثيفة.

ان الشيء الطريف، في العملية كلها، هو الصاقنا منشوراً على اللوحة التي تحمل عنوان "قائممقامية قضاء عنة" المستقرة في اعلى واجهة مبنى السراي الحكومي المبجل.

وفي ذاكرتي حتى الان المحاورة التي اجراها حسين مع الشرطي الذي يقف امام مبنى السراي، وكان رجلاً غائب الذهن، من اهالي مدينتنا اغراه حسين بشرب الشاي في المقهى المجاور، وتبرع بالوقوف نيابة عنه امام مبنى السراي. بل انه طلب اليه ترك بندقيته معه، ريثما يعود. وهكذا جرت العملية ببساطة، فما ان غادر صاحبنا الحارس مدخل المبنى لارتشاف الشاي وفي ساعة متأخرة من الليل، حتى كان احد الاصدقاء يتسلق عمود تليفون، ليرتقي الى اللوحة الحكومية المقدسة، ويلصق عليها منشوراً بالدعوة الى مقاطعة الانتخابات صادراً عن الحزب الشيوعي العراقي.

وهكذا، فقد شهدت العملية، غارقاً في الضحك. الشرطي المسكين في المقهى المجاور يرتشف شايه متلذذاً يحيط به بعض الاصدقاء يثرثرون معه ضاحكين. حسين يقف حارساً امام مبنى السراي حاملاً بندقية صاحبنا. صديق يرتقي الى الجدار ليلصق منشوراً شيوعياً .

كانت صورة كاريكاتورية رائعة لقوة النظام وجبروته!!

ولقد ظلت العملية موضع تندر فترة طويلة بيننا كما اثارت اهتمام سكنة المحلة، وبقية اهالي المدينة الذين اثارتهم هذه الجرأة دون ريب.

تلك كانت العملية الاولى لنا، على نطاق واسع ملفت للانتباه. وقد علمنا فيما بعد، ان "سعادة" معاون الشرطة، وكان رجلاً كريهاً متبجحاً لا يحسن الا انتزاع الرشاوى الرخيصة، والظهور كل صباح، وهو يدخل السراي متلقياً التحية الرسمية المعتادة من رجال شرطته المساكين، كما لوكان جنرالاً خطيراً يستعرض فيالقه العسكرية قبل معركة تاريخية فاصلة!- علمنا ان معاون الشرطة ذاك ، وبعد ان تعرض لدوش من الماء البارد من قائممقام القضاء، اثر اكتشاف المنشور على اللوحة لم يستطع شيئاً الا صب غضبه اللعين على حارس السراي الليلي.